

مكانة الطبيب العربي أبي القاسم الزهراوي في تاريخ الحضارة

فريد جحا

مقدمات :

هَلْ بقي شيء يقال تكريماً لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، بعد الاحتفال الذي أقيم تكريماً لمرور ألف عام على وفاته في مؤتمر الطب الاسلامي بالكويت في عام ١٩٨٣ (١) ، وبعد الأبحاث القيمة التي كتبت حوله في هذا المؤتمر ، وفي كتب : عبقرية الحضارة العربية مصدر النهضة (٢) وتراث العرب لفؤاد سيزكن (٣) ، والعلم العربي للدوميلي (٤) ، ومقدمة لتاريخ العلم لسارتون (٥) ؟

نقول : نعم لقد بقيت أشياء كثيرة تقال فيما خلف هذا الطبيب العربي الكبير ، وتبقى الدراسات حوله ناقصة ما دام كتابه العظيم (التصريف لمن عجز عن التأليف) متناثراً على شكل مخطوطات في المكتبات العالمية ، ولم يحقق ويطلع كاملاً حتى الآن (٦) مذكرين بأن حياته ، كما سنرى ، لم يفصل القول فيها ، وأنه كان الوحيد بين العلماء العرب الذي لم تعرف به دائرة معارف الاسلام (٧) ، على دقة المشرفين عليها ، واهتمامهم ، وما يقدمون في نهاية كل بحث من مراجع ومصادر .

مع أن أبا القاسم الزهراوي طبيب كبير مارس الطب بنفسه طوال خمسين عاماً (٨) وسجل نتائج خبرة نصف قرن ، في كتاب اعتبر بين أهم كتب تراث العلوم عند العرب ، كتاب اعتبر الزهراوي من أجله أكبر الجراحين العرب (٩) .

لذلك عولنا على كتابة هذا البحث مسهمين في الاحتفال بمرور ألف عام على وفاته ، ومذكرين بمكانته في تاريخ الحضارة ، وبالدعوة لتحقيق موسوعته (التصريف) تحقيقاً علمياً ، ونشرها في أقرب وقت مستطاع ؛ وبأنه لقي في الغرب قدماً وحديثاً كل

تجلة واكرام : فترجمت أجزاء منه الى اللاتينية والعبرية والفرنسية والانكليزية وطبعت هذه الترجمات في فيينا والبندقية وباريس ونيويورك بين سنتي ١٤٧١ م و ١٩٧٣ م (١٠) .

□ حياته وكتابه :

أول من تعرض لذكر الزهراوي العالم الأندلسي أبو محمد بن حزم (٣٨٣ - ٤٥٧ هـ ٩٩٣ - ١٠٦٤ م) ضمن قائمة أعداء لمشاهير جراحي الأندلس (١١) . ثم ظهرت أول سيرة لحياته لدى الحميدي (المتوفى عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) في (جذوة المقتبس) الذي عرّف به في أسطر قليلة قائلاً :

« خلف بن عباس الزهراوي ، أبو القاسم ، من أهل الفضل والدين والعلم ، وعلمه ، الذي يسبق فيه ، علم الطب ، وله فيه كتاب مشهور كثير الفائدة ، محذوف الفضول ، سماه كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف ٠٠٠٠ قال أبو محمد بن حزم ولئن قلنا : انه لم يؤلف في الطب أجمع منه للقول والعمل في الطبائع والجبر ، لنصدّقن ٠ مات بالأندلس بعد الأربعمئة (١٢) ٠ »

وهي الأسطر التي نقلها حرفياً ابن بشكوال (٤٩٤ - ٥٧٨ هـ / ١١٠٠ - ١١٨٢ م) مضيفاً اليها :

وذكره ابن سُميق في شيوخه (١٣) .

أما ابن أبي أصيبعة فلم يورد عنه في موسوعته الكبيرة سوى ما يلي :

« كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة ، جيد العلاج ، له تصانيف مشهورة في صناعة الطب ، وأفضلها كتابه المعروف (التصريف لمن عجز عن التأليف) ، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها ، و هو كتاب تام في معناه (١٤) ٠ »

يغلب على الظن أن أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي (الذي عرف في التسمية اللاتينية بـ Abulcasis ، أو Albucasis) قد ولد في مدينة الزهراء فيما بين عامي ٣٢٥ و ٣٢٩ هـ / ٥٣٦ ، ٩٤٠ م (١٥) ، وهي المدينة التي بناها عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموي في سفح جبل العروس الى الشمال الغربي من مدينة قرطبة المزدهمة بسكانها الذين قدر عددهم في ذلك الوقت ، بنصف مليون نسمة . أنشأها بدءاً من عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م وانتهى من بنائها في عام ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م ، وأطلق عليها اسم الزهراء نسبة الى (زهرة) ، زوجته الأثيرة ، فضمت قصوراً ملكية منيعة ، وأحياء للسكن ، ومسجداً ، ومدارس ، وحدائق ، حتى أطلق عليها بعض المؤرخين (فرساي الأمويين) .

عاش أبو القاسم في الزهراء ، ودرس الطب والجراحة فيها ، كما مارسهما وعلمهما حتى قبيل وفاته ، التي كانت في عام (٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م) ، أي بعد وقت قصير من سقوط هذه المدينة الحبيبة الى نفسه في أيدي البربر الذين نهبوا نفائسها ودمروها ، ولعل هذا من أسباب ضياع الكثير مما خلف هذا العالم الكبير .

الم يقل ابن أبي أصيبعة :

« وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب وأفضلها كتابه المعروف ٠٠٠٠ وهو أكبر تصانيفه وأشهرها (١٤) ٠٩ »

يلقب الزهراوي أيضاً بالأنصاري ، وفي هذا دليل على انتمائه الى القبائل العربية التي تنتهي بنسبها الى الأنصار ، الذين نزحوا من المدينة المنورة الى الأندلس ، وأقاموا فيها ، مما يوحي بأنه عربي الدم والانتماء ، اضافة الى عروبة ثقافته والحضارة التي عاش في ظلها .

يحتوي كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) على مادة زاخرة بالمعلومات الطبية التي جمعها صاحبها طوال نصف قرن من التدريب والتدريس والممارسة ، وهو يقع في ثلاثين مقالة نسرد فيما يلي عناوينها :

رقم المقالة	عنوان المقالة	رقم المقالة	عنوان المقالة
١	مقدمة في الطب وأقسامه - علم التشريح	١٥	مريبات الفواكه والأزهار
٢	تقسيم الأمراض وعلاماتها وعلاجها	١٦	السفوفات
٣	صفات المعاجين التي تخمر وتدخر	١٧	الأقراص
٤	الترياقات والأدوية المفردة الداخلة فيها	١٨	أدوية الاستعمال الخارجي
٥	الايارجات ادخارها وتخمرها	١٩	أدوية الزينة
٦	الحبوب المسهلة المرة	٢٠	أدوية علل العين
٧	الأدوية المقيئة	٢١	أدوية مداواة الفم والأسنان
٨	الأدوية المسهلة اللذيذة الطعم والرائحة	٢٢	أدوية علل الصدر
٩	الأدوية القلبية	٢٣	الأضمة المستعملة في العلاج
١٠	الاطريقلات (معاجين هندية)	٢٤	المراهم
١١	الجوارشنات (معاجين هاضمة)	٢٥	الأدهان البسيطة والمركبة
١٢	أدوية الباء والسمنة والتهزيل	٢٦	أطعمة المرضى
١٣	الأشربة والسكنجيات والربوبات	٢٧	قوى الأغذية وخواص الأدوية
١٤	النقوعات والمطبوخات	٢٨	في اصلاح الأدوية
		٢٩	تسمية العقاقير وأبدالها وأعمارها
		٣٠	العمل باليد (الجراحة - الجبر)

وقد أجاد الدكتور سامي خلف حمارنة استخلاص أخلاق الزهراوي من كتابه في الصفحة التالية :

« يعرب الزهراوي في مؤلفه ، التصريف ، عن قلقه على مصير طلابه ويسميهـم « أبناءـي » ، كما نراه يتجشم المشاق ويتخذ كل التدابير حتى يؤمن سلامة مرضاه ويكتسب ثقتهم ، ويستوي في ذلك الفقراء المهيضو الجناح منهم أو الأثرياء من الصفوة وأصحاب الجاه . ونراه يشدد على العلاقة الطيبة بين الطبيب ومريضه ويشجع على وجود تفاهم وتعاون وثيقين بين زملائه من الأطباء وزبائنهم . كما أكد على ضرورة الملاحظة الدقيقة للحالات المتفردة حتى يضمن القائم بالعلاج صحة تشخيص المرض وأفضل الوسائل للشفاء ، اما بالعقاقير أو الحمية أو بهما معاً . ولم يغفل الزهراوي المعايير الأخلاقية بل ألح على الالتزام بها ، وحذر من اتباع الأساليب اللاأخلاقية والمشبوهة التي يتبعها بعض الأطباء طمعاً في الكسب المادي . كما حمل على أدعياء الطب والمشعوذين الذين زعموا أن لديهم مهارات في ميدان الجراحة ، وهم في واقع الأمر أفاقون (١٦) » .

لا يزال كتاب (التصريف) مخطوطاً ، لم ينشر نشرأ علمياً منه سوى المقالة الأخيرة ، ومخطوطات الكتاب الكثيرة متناثرة في مكتبات العالم ، الا أن النسخ الكاملة منها قليلة العدد ، ونادراً ما تجتمع كلها ، فليس في العالم سوى بضع مخطوطات تضم الكتاب بكامله (١٧) . يضاف الى هذا أن أكثر هذه النسخ لا تحوي رسوم الأدوات الطبية التي زين بها الزهراوي مقالته الأخيرة الخاصة بالجراحة .

□ مكانة أبي القاسم الزهراوي في تاريخ الحضارة :

لأبي القاسم الزهراوي في تاريخ الحضارة مكانة خاصة نجملها في الأمور التالية :

١ - الزهراوي طبيب وجراح وصيدلي : طبيب مارس الطب ، ومارس الجراحة التي أجمع الذين قرأوا بعناية مقالته الأخيرة عنها ، وما سجل فيها من وصف للأدوات الجراحية التي اخترعها ، وعمل بها ، وللأمراض التي ذكرها أجمعوا على أنه قد قام بالكثير من العمليات الجراحية . يقول الدكتور أمين أسعد خير الله معبراً عن هذه الفكرة :

« ان من يطالع كتاب التصريف لا يتمالك عن الاعتقاد بأنه قد شرّح الجثث بنفسه ، لأن وصفه الدقيق لأجراء العمليات المختلفة ، لا يمكن أن يكون نتيجة النظريات فقط (١٨) » .

٢ - تعزى أعظم الانجازات في جراحة القرون الوسطى للزهراوي ، الذي كرس المقالة الأخيرة للجراحة بما فيها الكي ، ومعالجة الحروق ، واستخراج السهام وصحة الفم ، وتجبير العظام من الكسور البسيطة والمركبة . ولقد استعمل المطهرات في معالجة الجروح والغدوش الجلدية ، وابتكر الخيوط الطبية من أمعاء الحيوانات ، ومن الحرير ، والصوف ، ومن مواد أخرى (١٩) .

٣ - طور تقنيات جديدة لتوسيع المجاري البولية ، ولاكتشاف تجايف الجسد جراحياً ، واستعمل في عملياته الجراحية حوالي مائتي أداة جراحية ، صمم الكثير منها بنفسه ، وأورد رسوماً لها في كتاباته . ان أمثال هذه الأدوات مع بعض التعديلات ، استعملها فيما بعد جراحون من العالم المسيحي ، علاوة على الجراحين العرب والمسلمين .

٤ - بحث ' الزهراوي في صحة الأم والطفل ينطوي على أهمية خاصة في تاريخ التمرريض لأنه يوحى بوجود مهنة مزدهرة تمارس فيها المرضات والقابلات أدوارهن في مجال الخدمة العامة . ويظهر ، مما كتب ، أن الأطباء ، من أمثال الزهراوي ، كانوا يرشدون ويدربون القابلات ، كي يؤدين واجباتهن بكفاية (٢٠) .

٥ - كان الزهراوي بالاضافة الى ذلك صيدلياً فالجزء الأعظم من موسوعته مخصص لعلم العقاقير « كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة (٢١) » وهو قد أثبت فيها أنه في مجال الصيدلة ، ليس أقل حذقاً مما هو في مجال الجراحة

٦ - المقالة الثامنة والعشرون متميزة ، يصف فيها المستحضرات الكيميائية ، وصنع حبات الدواء ، واستخلاص المستحضرات عن طريق الترشيح ، والتقنيات الصيدلانية المتعلقة بذلك (٢٢) .

٧ - في الفصل الثالث والخمسين يتناول الزهراوي علاج السرطان فيقول :

« وذكرت الأوائل أنه متى كان السرطان في موضع يمكن استئصاله كله ، كالسرطان الذي يكون في الثدي ، أو في الفخذ، ونحوها من الأعضاء المتمكنة لاخراجه بجملته ولا سيما اذا كان مبتدئاً صغيراً ، فلتفعل . وأما متى قدم وكان عظيماً فلا ينبغي أن تقربه فاني ما استطعت أن أبرئ منه أحداً ، ولا رأيت قبلي غري وصل الى ذلك ، والعمل فيه اذا كان ممكناً كما قلنا ، أن تتقدم فتسهل العليل من المرة السوداء مرات ، ثم تفصده ان كان في العروق امتلاء بيتن ، ثم تنصب العليل نصبة يتمكن فيها بالعمل ، ثم تلقي في السرطان الصنانير التي تصلح له ، ثم تقوره من كل جهة مع الجلد على استقصائه حتى لا يبقى شيء من أصوله ، وأترك الدم يجري ولا تقطعه سريعاً بل اعصر المواضع ، واسلت الدم الغليظ كله بيدك ، أو بما أمكنك من الآلات ، فان اعترضك في العمل نزف دم عظيم : من قطع شريان ، أووريد ، فاكوا العرق ، حتى ينقطع الدم ثم عالجه بسائر العلاج الى أن يبرأ (٢٤) .

وهو نص هام جداً فيما يتعلق بهذا المرض الوبيل .

٨ - ذكر الزهراوي في موسوعته مائتي آلة جراحية موصوفة ومرسومة ، والكثير منها قد اخترعه هو ، وبينها المشارط والصنانير والمسابر والجفوت والكلاليب والمثاقب والمعدات . ويحتوي كتابه أيضاً على أول صورة في التاريخ للمقص الحقيقي ، الى جانب صورة لأول محقن في التاريخ الطبي ، الذي يسميه (زراقة) (٢٥) .

٩ - يورد الزهراوي لأول مرة في تاريخ الطب وصفاً دقيقاً لطريقة جرد الأسنان ، والفصل الثلاثون من المقالة الأخيرة ، فصل هام ، في قلع الأضراس ، يتميز بالدقة العلمية ، أما الفصل الثاني والثلاثون ، فأول ما كتب في تاريخ الطب ، عن تقويم الأسنان الذي أصبح الآن علماً قائماً بنفسه ، ويتحدث الزهراوي فيه عن نشر الأضراس النابتة على غير مجراها ، وعن تشبيك الأضراس المتحركة بخيوط الذهب (٢٦) .

١٠ - صنف الجراح الفرنسي المشهور غي دوشولياك Guy de Chauliac من القرن الرابع عشر ، الزهراوي في مصاف أبقراط وجالينوس ، وذكر فابريسيوس آب أكوابيدينتي Fabricius Ab Aquapendente من القرن السابع عشر أنه مدين بعلمه لثلاثة أطباء : أحدهم روماني هو Celsus والثاني أغريقي هو باولوس الأجانطي Paulus Aegineto والثالث عربي هو أبو القاسم خلف الزهراوي (٢٧) . وقال عنه الدوميلي ، سيد من كتب عن العلم العربي : « انه أشهر الأطباء الأندلسيين ، وواحد من أكبر الأطباء العرب المسلمين ، وأعظم الجراحين العرب طراً ، وكان تقديره لدى اللاتين لا يقل عن تقديرهم للرازي وابن سينا » (٢٨) .

★ ★ ★

□ هوامش وتعليقات :

١ - ألقيت حول الزهراوي أبحاث عديدة باللغتين العربية والانكليزية ، ولم تصدر في كتاب ، الا اننا تمكنا من الاطلاع على صور عنها مطبوعة على الآلة الناسخة ، وقد زدنا بها الصديق الصيدلي السيد محمد يحيى خراط الذي نشكره جزيل الشكر على ذلك .

2 — The Genius of Arab Civilization Westerham press, New York 1975.

٣ - تاريخه حول المخطوطات العربية ج ٢ ليدن ١٩٧٧ ص ٣٢٣ وهو باللغة الالمانية .

4 — Alda Mieli, La Science Arabe, Brill, Leiden, 1966, p. 181.

5 — Introduction to the History of Science V. I, p. 681 - 682.

٦ - طبعت المقالة الأخيرة منه المتصلة بالجراحة وأدواتها مع ترجمة لها الى اللغة الانكليزية من قبل بينكرولويس بعنوان: Albucasis on Surgery and Instruments, University of California press, 1973.

ويقوم الصيدلي محمد يحيى خراط حالياً بتحقيق القسم الصيدلي من الكتاب لنشره ودراسته تمهيداً للحصول على شهادة الماجستير في تاريخ العلوم عند العرب ، من معهد التراث العلمي بجامعة حلب بإشراف الدكتور زهير البابا .

٧ - راجعنا في النسخة الفرنسية مادة خلف Khalaf وأبي القاسم فاحالتنا على مادة الزهراوي Al-Zahrawi ولما رجعنا الى هذه الأخيرة لم نعثر عليها البتة .

٨ - سامي خلف حمارنة ، مقالة الزهراوي في كتاب عبقرية الحضارة المشار اليها سابقاً ص ١٧٠ .

٩ - سارتون المصدر السابق ص ٦٨٢ .

١٠- من أهم هذه الترجمات ، ترجمة لوسيان لوكليز عام (١٨٦١) بعنوان . La Chirurgie d'Albucasis .
وترجمة سينك ولويس المشار إليها فيما سبق .

١١ - سامي خلف حمارة ، المصدر السابق ص ١٧٠ .

١٢ - جذوة المقتبس في ذكره ولاية الاندلس طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦ . ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

١٣ - ابن بشكوال : كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم . مكتب الثقافة الإسلامية - القاهرة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م ص ١٦٧ .

١٤ - ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، منشورات دار الحياة بيروت ١٩٦٥ ص ٥٠١ .

١٥ - سامي خلف حمارة ، المصدر السابق ص ١٧٠ .

١٦ - عبقريّة الحضارة العربية ، مقالة الزهراوي ص ١٧٢ من النسخة الانكليزية .

١٧ - الدكتور زهير البابا ، مقالته في ندوة الزهراوي بالكويت عام ١٩٨٣ ، بعنوان : الصيدلي أبو القاسم الزهراوي ص ٥١٤ .

١٨ - د. أمين أسعد خير الله ، الطب العربي ، المطبعة الأميركية ، بيروت - ١٩٤٦ ص ١٧٣ .

١٩ - سامي خلف حمارة ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

٢٠ - سامي خلف حمارة ، المصدر السابق ص ١٧١ .

٢١ - ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، والصفحة ذاتها ، وأحمد مختار منصور ، مقالته عن الزهراوي في ندوة الكويت ص ٤٥١ .

٢٢ - الدكتور زهير البابا ، المصدر السابق ص ٥١٤ .

٢٣ - سامي خلف حمارة ، مقالته في ندوة الكويت ص ٣٤٣ .

٢٤ - أحمد مختار منصور ، المصدر السابق ص ٤٥٩ .

٢٥ - أحمد مختار منصور ، المصدر السابق ص ٤٥١ .

٢٦ - أحمد مختار منصور ، المصدر السابق ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

٢٧ - محمد ظافر الوفائي ، مقالته في ندوة الزهراوي بالكويت ص ٤٨٥ .

٢٨ - الدوميلي ، المصدر السابق ص ١٢٨ .

★ ★ ★